

فكرة الاستقراء فى القرآن الحكيم

محمد جميل قلندر

المحاضر بالقسم العربى

المعهد القومى للغات الحديثة

اسلام آباد (باكستان)

ان القرآن أول كتاب فى تاريخ الصحافة الالهية من وجه اهتمام الانسان تجاه دراسة ما فى الأنفس والآفاق من الآيات ، ودعاه إلى أن يتناولها بالنظر والرؤية والمشاهدة بشكل نظامى. لقد تنبأ القرآن بأن الانسان سيحظى تدريجاً بلقاء الحق الملفوف فى آيات الكون عن طريق رؤية هذه الآيات كما ينطق به الكتاب : سنريهم آياتنا فى الآفاق فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (٤١ / ٥٣). معنى هذه الآية واضح وهو أن الحق لا يتبين الا بمشاهدة آيات الله المنعكسة فى الكون لأن مُنْعَجِنَ بها. ان الكون كما يؤكد القرآن الحكيم ، عبارة عن الآيات المحكمة والمتشابهة. ومن عجيب النكت القرآنية أن ما يُتلى علينا من قبل الله فى القرآن الحكيم هو هذه الآيات. واليك ما يقول القرآن نفسه فى هذا المضمار : (ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين. وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فأحياه به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون. ٤٥ / ٣ - ٦). يتبين من ذلك أن آيات الانفس والآفاق متلوة كآيات القرآن.

هناك نكتة لطيفة في اختيار القرآن مصطلح الآيات لظواهر الكون في سجل مصطلح المادة وخواصّها. وهي أن مفهوم المادة متغير وقد تغير فعلا حتى يختلف عما كان عليه قبل النهضة العلمية الحديثة. ويبدو من دراسة العلوم الحديثة أنه لا يمكن التعبير عن ماهية المادة الا بلغة الرموز (Symbols). ومن المعلوم أن الطابع الرمزي قد تغلّب على كثير من العلوم حتى معظم التعابير يسبك في قوالب فارمولية. فهناك مثلاً عدة تعابير رمزية عن المادة : هي عبارة اما عن احوال ذهنية او أفكار مكثفة او حوادث مترابطة او تركيب منطقي على حد تعبير بركلي وأسينسكي ووهائيت هيد وبرتاند رسل على الترتيب ، من العجيب أن الاكتشافات العلمية الحديثة خاصة في مجالى الكيمياء والفيزياء قد حوّلت كل ما نبصر ومالا نبصر من الكون الى المجال الكهر مغناطيسى (Electro - magnetic field).

نظراً الى كون مفهوم المادة وخواصّها متغيراً على هذا النحو من زمن الى زمن فإن القرآن لم يرجّح أى تعبير متداول عن المادة بل اختار مصطلح الآيات كمرادف لمصطلح الرموز ، ثم سكت عن وصفها العرضى المؤقت سكوتاً حكيماً وترك الأمر للبحث والاكتشاف وهو يأمرنا : «أنظروا ما ذا فى السموات والأرض ، (١٠ : ١٠١). هو يندد بمن لا يباليون بآيات الكون قائلاً : وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، (١٢ : ١٠٥) ، وفى موضع آخر يقول : «وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، (٢١ : ٣٢).

ومما يدهشنا فى القرآن قوله أن هناك علاقة ايجابية بين الانسان والكون بحيث أن مشاهدة الأول للأخير تكشف عن مدة أجله الحضارى على الأرض. ان هذا المفهوم العميق كامن فى الآية القرآنية التى تقول : «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، (٧ : ١٨٥).

ان فكرة الأجل تتكرر فى القرآن لظاهرة كونية وأمية. أما بخصوص علاقته بالأمم فان القرآن يقول : «ولكل أمة أجل .. (٧ : ٣٤) وان هذه الأجلية (Periodicity) تحضع بدورها لنا موس معين كما ينطق به الكتاب : «لكل أجل كتاب .. (١٣ : ٣٨). ان قيد الموضوع لا يسمح ببحث مفصل فى فكرة الأجلية هذه كما وردت فى القرآن ، ونترك معالجتها المبسطة لكتابنا مفهوم الربوبية الخلاقة فى القرآن .. وهو تحت التأليف.

وما يهمنى هنا أن القرآن يقف من آيات الانفس والآفاق موقفاً استقرائياً واقعياً تجريبياً. هو ينفذ رأى الذين يقولون أن الكون ليس الا خداعاً ووهماً ، او ليس موجوداً فى الخارج ، فيسلبون منه صفة كونه مخلوقاً بالحق. ان القرآن يقوم بنفى هذا الرأى الكفرى قائلاً : وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. (٣٨ : ٢٧). أى الذين ستروا الحقائق فالحقوق. ان ستر الحقائق يترتب عليه ستر الحقوق الانسانية لقد اشار الامام على رضى الله عنه الى نفس الواقع اذ قال : «اتخذوا ستر الله ذريعة الى المعصية ..»

بناء على موقفه الاستقرائى هذا فان القرآن لا يقبل أى ادعاء علمى لا يستند الى شهادة الحواس والفؤاد ، بل يعتبره رجماً بالغيب أو ظناً لا يعنى من الحق شيئاً. ان العلم ، كما يؤكد القرآن ، عبارة عما يدركه الفؤاد (Seat of ratio-cination) عن طريق الحواس. أما مالا يحصل عن هذا الطريق فانه ظن ، وان القرآن ينهانا عن اتباعه قائلاً : «لاتقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً .. (١٧ : ٣٦).

من المعلوم أن السمع والبصر كليهما يلعب دوراً هاماً فى عملية التعلم وان التساؤل عما هو الافضل منهما ، اذا قورن بينهما ، قد أثار كثيراً من البحث والاكتشاف. وما يبدو اقرب الى ما نطق به القرآن فى هذا الصدد هو الرأى القائل

أن السمع والبصر كليهما من أهم ذرائع التعلم ، ان القرآن لا يفرق بينهما حتى يفضل الواحد على الآخر كما يبدو من الآيات التالية : «لا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً» (١٧ : ٣٦).

«ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد» (٥٠ :

(٣٧

«ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة (٢ : ٧).

بغض النظر عما تحمل هذه الآيات من الايحاءات التعليمية فيجدر بنا أن نشير الى رسالة الأستاذ نيكولاس ريدكولينز (Nicholas Read - Collins) الانجليزية التي تتعلق بنفس الموضوع ، واليكم نصّها بالعربية :

عزيزى السيد قلندر

ان تلفنتك الحالية قد ذكرتنى بشيء كنت فى حاجة اليه مذ مدة طويلة. ليت شعرى لو استطعت أن تقوم بمساعدتى .انى احاول العثور على مرجع او بحث يتعلق بنص قائل أن البصر من بين الحواس يلعب دورا رئيسيا فى عملية التعلم ، وأن السمع يلعب دوراً اقل منه فيها ليت شعرى لو صادفته اثناء دراساتك المهنية

. نيكولاس ريدكولينز

يتوضح من هذه الرسالة مدى اهتمام الباحثين المعاصرين بدور السمع / البصر فى عملية التعلم ، وايضاً حكمة القرآن فى حثه المكرر على استعمال السمع والبصر وفى تركه ذكر غيرهما من الحواس بالاسم.

ان القرآن كما سبق آنفا لا يشجع أى ادعاء علمى لا ينتمى الى شهادة الحواس والفؤاد. هو يتخذ كليهما مسئولاً عن العلم. وفكرة المسؤولية هذه تتكرر فى موضع آخر من القرآن حيث يتبين معناها الحقيقى. كان فى العصر الجاهلى اعتقاد سائد بكون الملائكة اناثا. ان القرآن يعرض هذا الاعتقاد للانتقاد سائلا : أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسئلون ، (سورة الزخرف ٤٣ : ١٩). هذه الآية توحى بثلاث مراحل يجب أن يمر بها اختبار قول قائل ، وهى :

(١) المشاهدة (Observation)

(٢) كتابة ما يشاهد (Recording of observation)

(٣) التساؤل (Inquiry)

ان هذه المراحل الثلاث تكون الطريقة العلمية (Scientific method) بالضبط يكتب جيبسن (Gibson) فى كتابه (علم النفس التعليمى) أن الطريقة العلمية تجمع فيها ظواهر مقصودة مختصة وتشاهد كما هى تحدث ثم تكتب هذه الشهادات (Observations) بدقة وتستعمل فى الاجابة عن اسئلة مطروحة حول السلوك تحت البحث.

ان النبى عليه الصلوة والسلام أول مُعَلِّمٍ قَادَ الحضارة البشرية الى استخدام هذه الطريقة من خلال مشاهدته لفتى يهودى مُصاب بمرض نفسى يُسمى ابن صياد الذى استنطقه النبى عليه السلام فى البداية ثم قام بمشاهدته النظامية فى حالته الطبيعية. ذات يوم جاء النبى الى حديقة كان ابن صياد جالساً فيها، واختبأ وراء شجرة من النخل بحيث لا يرى وأخذ يشاهده ببالغ الاهتمام. بينما كان مشغولاً بهذه المشاهدة اذ جاءت أم ابن صياد ووقعت عينها عليه فحذرت ابنها من وجود النبى عليه السلام فانتبه وأفاق من غيبوبته. فقال النبى متأسفاً : «لو تركته

وحيدا لتبين الأمر (١) . . . ان الأستاذ ميكدونلد يسخر من موقف النبي تجاه ابن صياد ويقول : «هناك فكاهة كافية فى هذا المنظر الذى يحاول فيه واحد من الانبياء أن يقوم باستقراء نبي آخر طبق «طريقة مجمع البحوث النفسية. وأما بالنسبة للغلام فليس فيه ما يبعث على السخرية (٢) . . . لقد غاب عن ذهن الأستاذ المذكور أن ما تدعو اليه روح حكمة القرآن الاستقرائية هو مثل ذلك الاستقراء. ولم يكن استقراء النبي لابن صياد الا تطبيقا عمليا لمبدأ التبين الذى تنطق به الآية : «يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق ببناء فبينوا» (٤٩ : ٦). ولكى يتبين مدى صدق قول ما فان القرآن يطالب قائله بنوعين من البينة : (١) نوع كتابى (Documentary) و (٢) نوع فى شكل آثار علمية (Scientific data). هو يخاطب من يصدر عن حكماء على شىء قائلا : «ايتونى بكتاب من قبل هذا او آتارة من علم ان كنتم صادقين . . . (٤ : ٤٦). ان القرآن يولى النوع الأول من البينة أهمية كبرى ويعلل ذلك قائلا : «ذلك ادنى ألا ترتابوا» (٢ : ٢٨٢). ان الله نفسه ، كما يتضح من دراسة القرآن ، قد احاط بكل شىء علما عن طريق الاحصاء الكامل (enumeration Complete) الذى تكتب وتحصى فيه الجزئيات بأسرها ثم تستنتج منها كلية أو كلييات. واليكم بعض كلييات القرآن الاحصائية فى هذا الصدد :

- ١ - كل كبير وصغير مستنطر . (٥٤ : ٥٣).
- ٢ - كل شىء احصيناه فى امام مبين. (٣٦ : ١٢)
- ٣ - كل شىء احصيناه كتاباً. (٧٨ : ٢٩)
- ٤ - لقد احصاهم وعدّهم عدّاً. (١٩ : ٩٤)
- ٥ - ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها . (١٨)

(٤٩): ويبدو من معالجة (الاستاذ جون بطريق داو) لفكرة الاستنتاج عن طريق الاحصاء الكامل أنه قد قلل من أهميتها حتى اكتفى بنظرة عابرة فيها فى حين أنها فكرة عميقة وقيمة من وجهة النظر الرياضية وخاصة بالنسبة للذهن المحيط بكل

شيء الذى تفترضه هذه الفكرة سلفاً. ان وجود هذه الفكرة فى القرآن توحى بأن الله خلق الكون ، كما يرى بعض العلماء المعاصرين أيضاً ، حسب القوانين الرياضية والاحصائية. وكان بإمكان الانسان فى نطاقه البشرى أن يتخلق باخلاق الله الرياضية والاحصائية تلك حتى يتحقق فيه قول الله : «وعلم آدم الاسماء كلها .. (٢ : ٣١). ان فكرة تعليم الأسماء وفكرة تسخير الاشياء فكرتان عميقتان فى القرآن بحيث بقيتا تنتظران البحث والاكتشاف حتى حظى الزمن الحاضر بتفسيرهما.

ان استقراء آيات الكون نوع من العبادة يأتى به اليقين كما ينطق به القرآن : «اعبد ربك حتى يأتىك اليقين» (١٥ : ٩٩). وان العبادة تعنى الدراسة والمتابعة والملازمة لكلمات الله وسننه وآياته التى تنكشف فى الانفس والآفاق. أما اليقين فقد قسمه القرآن الى ثلاث درجات : (١) علم اليقين (٢) وعين اليقين و (٣) حق اليقين. علم اليقين عبارة ، كما يرى ابن عربى (٣) ، عن مفهوم ذهنى عن حالة شىء ، وعين اليقين عبارة عن مشاهدة شىء كما هو فى الحقيقة ، وحق اليقين عبارة عن الفناء فى الحق (Reality) والبقاء به بثالوث العلم والمشاهدة والحال / الذوق (٢). بهذا الاعتبار فان هذه الدرجات من اليقين تعنى على الترتيب :

- ١ - اليقين المفهومى - العقلانى (Conceptual-national certainty)
- ٢ - اليقين الشعورى - التجريبي (Perceptual-empirical certainty)
- ٣ - اليقين الوجودى - الحقيقى (Existential-real certainty)

وذلك عن طريق المشاهدة أن الانسان يحظى بالدرجة الثانية من اليقين

كما توحى بذلك قصة رؤية ابراهيم عليه السلام لملكوت السموات والأرض حيث

وردت الآية : «وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين. » (٦ : ٧٥). تجيب هذه الآية عن سؤال لماذا لجأ النبي عليه السلام الى مشاهدة ابن صياد المذكور آنفاً. وتشير أيضا الى أن ذلك بفضل مشاهدة ما فى السموات والأرض من الآيات أن ابراهيم قد حظى باليقين. ومما يبعث على الاهتمام أن القرآن يكشف الستار عن أسوة ابراهيم الاستعلامية - الاستقرائية بإشارته الى طلبه عليه السلام : «رب أرني كيف تحيي الموتى » (٢ : ٢٦٠). تلك هى بضع كلمات تعكس رغبة ابراهيم الملحة فى رؤية كيفية احياء الموتى. بالرغم من أنه نبي جليل فهو يطلب مثل هذا المستحيل العقلى ويعلّل طلبه قائلا : أريد أن أرى ذلك «ليطمئن قلبى ... يتضح من ذلك ان الاطمئنان القلبى لا يحصل الا عن طريق المشاهدة المباشرة. ومن الاعجب أن طلبه لم يرفض نظراً لكونه شيئاً طبيعياً يوجد كفرية عند كل انسان.

فنى أن الصلة بين الله و ابراهيم كصلة بين أستاذ عطوف شفيق وتلميذ رشيد متسائل. هذا يتساءل ملحاً وذلك يجيب مرشداً بحيث تتصور كأن كليهما فى مختبر - مختبر الطبيعة المفتوح - يرشد فيه الأستاذ التلميذ الى طريقة احياء الموتى، لما هناك تشابه بين نفسية الحيوان ونفسية الانسان فيجب أن يأخذ ابراهيم أربعة من الطير ويجرى عليهن تجربة بحيث يمرهن بمراحل التعويد والامالة و التمرين ثم يترك جزء منهن على كل جبل فيدعوهن فيأتيه بسرعة. كذلك ستؤدى طريقة التمرين والامالة والتعويد للحيوانات (Conditioning animal) الى الكشف عن طريقة احياء الموتى. نرى هنا أن القرآن يطبق نفسية الحيوان على نفسية الانسان ويوجهنا الى اختيار ما هو المناسب من طرق التعليم والتدريب والتمرين والتربية والتزكية ل احياء شعب ميّت. تلك أسوة ابراهيم التى قال فيها القرآن : «قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه » (٦١ : ٤).

ان القرآن يقص علينا قصة أخرى ترمى نفس المطلب ، وهى أن رجلاً مرّ

بقرية غارقة في البؤس والشقاء والخراب فسئل متعجبا : «أنى يحيى هذه الله بعد موتها» (٢ : ٢٥٩). ان سؤاله هذا لم يجلب عليه أى سخط الهى بل لقى لطلب ابراهيم اجابة بشكل رمزى. فتوفى بحيث خيل اليه كانه لبث مئة عام ثم بعث ولم يكن وفاته وبعثه الا كوفاتنا بالليل وبعثنا فى النهار. لما رجع الى شعوره العادى فعلم أنه لبث يوماً أو بعض يوم . فقليل له : بل لبث مئة عام حسب شعورك فى الرؤيا أثناء نومك (١). ثم لفت انتباهه الى الاشياء التالية : (١) طعامه وشرابه الطازجين ، (٢) حماره القائم على قوائم ، (٣) ظاهرة خلق العظام وكسوها باللحم كما هى تشاهد عند نشأة الجنين. ففي هذه الحكاية هناك ثلاث مقارنات : (١) الأولى بين حالة نائم يشعر أثناء رؤياه فى النوم بموته لمدة مئة عام وحالة قرية مصابة بموت اجتماعى لفترة محدودة. (٢) والثانية بين ما يملك ذلك النائم من الوسائل كالطعام والشراب والحمار واطراف تلك القرية الخارجية (٣) والثالثة بين ظاهرة نشأة الجنين ونهضة القرية من جديد. ففي المقارنة الأولى كما يستبعد النائم فى نومه عودته الى حالته الأولى من الحياة فكذلك هو يستبعد فى يقظته احياء تلك القرية من جديد. فكما هو منخدع فى أمر ذاته أثناء النوم فكذلك هو منخدع فى أمر القرية أثناء اليقظة . وفى المقارنة كما الاعتبار ليس للوسائل والذرائع بل لمن يستخدمها فكذلك الاعتبار ليس لما فى القرية من العروش والفروش بل لمن يسكن فيها. وفى المقارنة الثالثة كما تنشأ العظام من المضغة ثم تكتسى باللحم فكذلك يمكن أن يزول جفاف تلك القرية وتعود الى حالتها الأولى من الحياة والحركة والبركة . بغض النظر عن روح التفاؤل التى تبثها هذه القصة فهى مطبوعة بطابع الاستقراء والاستدلال عن طريق القياس (Argumentation by analogy). بالاضافة الى ذلك فانها توحى بتبيين عملى (Demonstration)، فى مختبر الطبيعة المفتوح ، لطريقة تشبة طريقة التنويم المغناطيسى لأجل تصوير الفرق بين النوعين من الشعور : (١) الشعور المقيد و (٢) الشعور المنطلق. فهى توضح أن

ذلك حسب الشعور المقيد أن احياء القرية يتراءى أمراً مستبعداً. وأما بالنسبة للشعور المنطلق فهو أمر مستقرب. تلك هي الفكرة العميقة التي تشير اليها الآية : «فاصبره صبراً جميلاً. انهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً. (٧٠ : ٥ - ٧).

ما سبق من البحث يثبت أن القرآن أول كتاب فى تاريخ الصحافة الالهية يدعو الى النظر والابصار والمشاهدة والاستقراء والتبين. بناء على هذا الموقف فانه يعرف أولى الايمان بكونهم الذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً. (٢٥ : ٧٣). كان ذلك من نفخ روح الاسلام الاستقرائية أن حبلت الأرض من فلاسفة وعباقرة امثال النظام والجاحظ والكندى والفارابى وابن مسكويه وابن سينا وابن الهيثم وابى بكر الرازى والاشراقى وابن تيميه والغزالى وابن باجه وابن طفيل والبيرونى وابن رشد وابن خلدون الذين يتراءى حكماء العالم اقزماً أمام ما قاموا به من البحوث والاكتشافات. تلك هي الروح التى تتمثل فى أسوة النبى عليه الصلاة والسلام بشكل بارز، لاسيما فى قوله المثلى الذهبى : ليس الخبير كالمعاينة.



المراجع

- ١ - القرآن
 - ٢ - أبو داؤد (سنة)
 - ٣ - فخرالدين الرازى : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)
 - ٤ - ابن خلدون : المقدمة
 - ٥ - البخارى : الجامع الصحيح
 - ٦ - Day, John Patrick, Inductive Probability
 - ٧ - De Boer, The History of Philosophy in Islam
 - ٨ - Eddington, The Nature of the Physical World
 - ٩ - Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam
 - ١٠ - Macdonald, Duncan Black, The Religious Attitude and Life in Islam
- (١) صحيح البخارى : كتاب الآداب
- (٢) Macdonald, Duncan Black, The Religious Attitude and Life in Islam. Beirut: Khayats, 90-94 Rue Bliss, 1965, p 36
- (١) ابن عربى : فصوص الحكم المقدمة) المترجم الى الأردية من قبل حافظ محمد بركة الله ، ص ١٥٨
- (٢) ان نظرية الاعيان التى شرحها ابن عربى فى فصوص الحكم مبنية على فكرة عين اليقين ولذلك لاصلة لها بنمط الافلاطونية.
- (١) فيما يتعلق بحصول خبرة الموت تلك فى حالة النوم فقد وردت اشارة فى نص مروى عن ابن عباس نقله الرازى وهو أن عزيز دخل بابل فسأل متعجبا : أنى يحيى هذه الله بعد موتها .. ذلك بعد أن طاف فيها ولم يجد فيها أحداً سوى اشجار منمرة فأكل من ثمرها العنب والتين وشرب من عصير العنب ونام فأماته الله تعالى فى منامه منه عام ... ١ نظر ص ٣٢٢ من الجزء الثانى للتفسير الكبير).